أبعاد التدخل العسكري الروسي في سوريا

أ.د/ شمامة خير الدين ـ جامعة باتنة 1 ـ

ملخص:

لقد انتقلت روسيا وبصورة مفاجئة لعديد من المتتبعين من التحالف الدبلوماسي خاصة، داخل الأمم المتحدة والذي سمح لها بإجهاض جميع مشاريع القرارات الغربية التي كانت تتجه نحو إضفاء شرعية أممية على تدخل عسكري في سوريا، إلى تدخل عسكري أثر على الصراع الميداني لكل ذلك يطرح التدخل المذكور الإشكالية التالية: هل يمكن لروسيا الزج بأبنائها في صراع بين السوريين وبينهم وبين منظمات إرهابية وتحمل تكاليف هذا التدخل دونما وجود أهداف إستراتيجية تبتغي تحقيقها؟

Résumé:

Après le soutien diplomatique russe qui a fait avorter tous les projets de résolutions dont l'objectif fut la légitimation onusienne d'une intervention militaire occidentale en Syrie, La Russie a surpris tous les observateurs par une intervention militaire en Syrie, non sans résultats sur le terrain.

Ainsi, la problématique à laquelle le présent article essaye de répondre est la suivante: Est-il possible, que la Russie s'engage militairement dans un conflit entre syriens et entre ceux-ci et des mouvements terroristes, et en supporte le coût sans qu'elle n'ait des objectifs stratégiques à réaliser ?

مقدمة

تتميز العلاقات الدولية بقيامها على المصالح وليس الصداقات.ومع ذلك، فإن المصالح المتبادلة قد تخلق صداقات بين ذوي المصلحة المشتركة، مما يشكل قاعدة صلبة لتحالفات مختلفة.ضمن هذا السياق، يأتي التحالف الروسي-السوري والذي بقدر ما سمح لسوريا بالاعتماد على الفيتو الروسي لإجهاض قرارات سعت بعض الدول الغربية (خاصة الولايات المتحدة وفرنسا)لاستصدارها من مجلس الأمن لإضفاء الشرعية على التدخل في سوريا على غرار ما حصل في ليبيا، بقدر ما سمح لروسيا بتحقيق أهداف إستراتيجية وفي مقدمتها تأكيد عودتها على الصعيد الدولي (أولا) ثم فك الحصار الذي يريد الغرب فرضه عليها للمضي إلى تحقيق الحلم السوفياتي سابقا والروسي حاليا بالوصول إلى المياه الدافئة (ثانيا).

أولا: تأكيد العودة

يقتضي تأكيد العودة تخطي إحباط انهيار الاتحاد السوفياتي، فلقد كانت روسيا أكثر جمهوريات هذا الأخير تمثلا به إلى درجة أن معظم الذين يكتبون عنهما يستعملون في كلتا الحالتين كلمتي روسيا أو الروس.

ويمكن للمرء أن يلمس ذلك الإحباط في مقتطفات مما كتب عشية انهيار الاتحاد السوفياتي السابق.

لقد وصفت مجلة تايم الاتحاد السوفياتي في أعوامه الأخيرة بأنه "قوة عظمى صغرت إلى حد التسول"[1].كما علقت الأستاذة أنيتا تيراسبولسكي Anita Tiraspolsky على انسحاب الاتحاد السوفياتي سابقا واختفاء نفوذه من أوروبا الشرقية بأنهما "انهزام جيوسياسي، اقتصادي وثقافي وتضييع لوجهاته".[2] بل إن الأمريكي ريتشارد بايب Richard Pipe قال: "إن الجيش الأحمر صاحب المكانة الأولى عالميا قد وجد نفسه مهزوما بطريقة لا مثيل لها في التاريخ، فقد جرت العادة أن تهزم الجيوش في المعارك، لكن الجيش الروسي هزم دون حرب"[3].

كل ذلك جعل الأستاذ هنري كسنجر Henry Kissinger يجزم بأن الرئيس الروسي فلاديمير بوتين Poutine "يعلم أن روسيا الآن أضعف من أن تسمح لنفسها

بالانطلاق في منافسة استراتيجية مع الولايات المتحدة و من هنا ينبع بحثها عن المصالحة و التقارب معنا'[4]غير أن بوتين وقبل حتى أن يصبح رئيسا، صرح عشية انتخابه (31 ديسمبر 1999) بما يلي:"إننا لا نقبل (...) أن تصبح روسيا تابعة للولايات المتحدة أو بريطانيا العظمى على سبيل المثال (...) بالنسبة إلى الروس الدولة القوية ليست مسألة شاذة يجب التخلص منها. إنهم على العكس من ذلك يعتبرونها الضامنة للنظام وفي الوقت ذاته المحفز والمحرك لأي تغيير".[5]

هكذا إذا، وضمن السياق المشار إليه، انطلقت الدبلوماسية الروسية على نحو ما نبه إليه الروسي أليكسي فاسلاييف AlexeiVasslaiev عندما قال منذ سنوات مضت أن روسيا يمكنها أن تستثمر علاقاتها التقليدية مع الدول العربية بشرط أن تكون "مستعدة بسيكولوجيا لانخفاض نفوذها بالمنطقة بالمقارنة مع عام 1985 (...) قبل أن يبدأ نهوض جديد"[6].

ويبدو أن هذا النهوض قد تحقق فعلا مع الأزمة السورية وعلى أكثر من صعيد.

لقد كان إقناع الرئيس بوتين لنظيره السوري بشار الأسد بتدمير أسلحته الكيماوية تحت رقابة العالم بأكمله نجاحا على جميع المستويات: فمن ناحية تم إفشال التدخل العسكري الأمريكي بسوريا والذي كان ينتظر فقط موافقة البرلمان الأمريكي. ومن ناحية أخرى، ارتياح الرأي العام الدولي لتخليص العالم من ذلك السلاح المحظور. ومن ناحية ثالثة، وضع المعارضة السورية هي الأخرى تحت المجهر، بعد تبادل التهم الذي كان سائدا بينها وبين الجيش النظامي الذي بات مجردا من السلاح المشار إليه.وعلى صعيد آخر، وعلى نحو ما أشار إليه أستاذ مركز الدراسات الإستراتيجية والدولية بواشنطن قوردنهاين GordanHahn، فإن ما نشرته وسائل الإعلام الروسية حول توجه مئات المقاتلين الروس إلى سوريا و ما حذر منه الرئيس بوتين الذي يرى أن فشل الجيش السوري سيجعل من سوريا صومالا آخر أكثر تعفنا بسبب تخمة السلاح الموجودة بسوريا وموقعها في منطقة حساسة جدا، كل ذلك سوف يجعل هذه الدولة قاعدة خلفية ينطلق منها الإرهابيون لضرب روسيا ذاتها وهو ما أصبح مقتنعا بالنسبة إلى الولايات المتحدة أيضا[7] والتي يمكنها أن تواجه نفس الخطر وهذا ما يعد انتصارا دبلوماسيا ثانيا.

وعلى صعيد ثالث، حرصت روسيا على أن تكون عودتها على الساعة الدولية محترمة للشرعية الدولية (خلافا للولايات المتحدة).لقد اشترطت أن يكون أي تصويت داخل مجلس الأمن بشأن استعمال القوة في سوريا ضد داعش استنادا إلى الفصل السابع، مرهونا بموافقة الرئيس بشار الأسد. ولقد استندت في ذلك إلى السابقة الليبية في 2011، فلقد امتنعت عن التصويت ولم تستعمل حق الفيتو ضد قرار مجلس الأمن رقم 1973 لأن هدفه المعلن كان حماية المدنيين،إلا أن هذا الهدف تم تحريفه بالشكل الذي يبرر التدخل العسكري وقلب حكم الرئيس الليبي آنذاك معمر القذافي[8]. مثل ذلك الشرط ينسجم مع ما تقضي به المادة 20 من مشروع المواد حول مسؤولية الدولة عن الأعمال غير المشروعة دوليا الذي أعدته لجنة القانون الدولي والتي تعتبر الموافقة الصحيحة للدولة المتدخل فيها مبعدة لعدم المشروعية ما بقي التدخل ضمن حدود تلك الموافقة.

كما يتفق الشرط المشار إليه مع ما تريده سوريا وهو ما عبر عنه ممثلها الدائم لدى الأمم المتحدة بشار الجعفري (16 فيفري 2016) في إطار النقاش الذي دار داخل مجلس الأمن حول احترام أهداف ومبادئ الأمم المتحدة كشرط أساسي للمحافظة على السلم والأمن الدوليين.

لقد جاء في تدخل الجعفري أن "كل مجهود من أجل محاربة الإرهاب سيكون مآله الفشل، إذا كان يتعارض مع نصوص الميثاق ومبادئ القانون الدولي"، كما دعا إلى"التمسك بمبادئ احترام سيادات الدول وتسوية النزاعات الدولية عن طريق الوسائل السلمية وعدم التدخل في الشؤون الداخلية (...)، مضيفا بأن "محاولة بعض الدول الأعضاء تبرير تدخلها العسكري في سوريا بحجة محاربة داعش وبدون أي تنسيق مع الحكومة السورية هو تشويه لنصوص ميثاق الأمم المتحدة"[9].

ثانيا: فك الحصار للوصول إلى المياه الدافئة

إن شعور روسيا بمحاصرة الغرب لها ليس حديثا و هو من منظور الدول الغربية عقدة مرضية روسية، لكنه بالنسبة إلى الروس واقع ملموس يجب تغييره للانطلاق نحو تحقيق هدف الوصول إلى المياه الدافئة.

ويبدو أن النخبة الروسية-خاصة منذ وصول الأكاديمي إفقني بريماكوف EvguenyPrimakov إلى وزارة الخارجية في 1996-مقتنعة بتصميم الولايات المتحدة على محاصرة روسيا من خلال توسيع منظمة حلف شمال الأطلسي إلى أوروبا الشرقية، دول البلطيق وإلى أكرانيا، مع أن هذا الأمر يتعارض مع الوعد الذي أعطي لغورباتشوف مقابل موافقته على انضمام ألمانيا الموحدة لمنظمة حلف شمال الأطلسي.[10]

وفضلا على ما سبق ذكره، اعترفت الولايات المتحدة باستقلال كوسوفو (2008) وساعدت جيورجيا وأوكرانيا، كما نشرت قواعد صواريخ في بولونيا و تشيكيا.

كما يدخل ضمن منطق المحاصرة تحالف الولايات المتحدة مع الدول الأوروبية الغربية داخل مجلس الأمن لفرض عقوبات على بعض الدول أو شن حروب على أخرى أو قلب نظم حكم...طالما أن الغرض من كل ذلك هو التملص من أي تفاوض مع روسيا قد يكون من شأنه أخذ مصالحها بعين الاعتبار[11].

مثل هذا الاعتقاد بوجود محاصرة أكده الوزير الأول الروسي ديميتري مدفيدف DimitriMedvedev في قمة ميونيخ للأمن حول سياسة الاتحاد الأوروبي في تدعيم الشراكة مع الجمهوريات السوفياتية السابقة (ألمانيا، فبراير 2016)، حيث أعلن أن الغرب أنشأ "حزام إقصاء لروسيا"[12].

غير أن محاصرة روسيا تأخذ بعدا آخر عندما يتعلق الأمر بأكرانيا الواقعة عند عتبتها.

لقد قال الأستاذ زبيقنيافبريجينسكي ZbignievBrzezinski في 1997 أن "الوسيلة الوحيدة لمنع روسيا من العودة كقوة عظمى هي فصل أكرانيا عن نفوذها".[13] فما هي خصوصية هذه المنطقة بالنسبة إلى روسيا؟

تجدر الإشارة، بادئ ذي بدء إلى أن أكرانيا لم تعش كدولة مستقلة طوال تاريخها سوى ثلاث سنوات (1917-1920) وذلك على إثر تفكك الجيوش القيصرية.[14] كما أن العاصمة الأكرانية كييف Kiev كانت أول عاصمة لروسيا و ذلك من القرن العاشر إلى القرن الثاني عشر، بل إن أكرانيا ذاتها كان يطلق عليها "روسيا الصغرى"؛ وإلى جانب 15 مليون أكراني الذين يعيشون بروسيا[15]، فإن 38%من الأكرانيين

يتكلمون في بيوتهم اللغة الروسية، أما منطقة القرم La Crimée، فإنها لم تصبح جزءا من أكرانيا سوى بقرار فرضه الرئيس السوفياتي الأسبق نكيتا خروتشيف NikitaKhroutchev.[16] ومما يستحق الذكر أيضا أن القاعدة البحرية سيباستوبولSébastopolالمؤجرة من أكرانيا لروسيا عاقب تفكك الاتحاد السوفياتي قد تم تمديد تأجيرها في 2010م إلى غاية سنة 2042م[17]،وبأن أكرانيا تحتل المرتبة التاسعة عالميا في إنتاج اليورانيوم[18].

وهكذا، فإن التدخل الروسي في سوريا قد يكون رسالة للغرب بأن روسيا القادرة على حماية مصالحها في الخارج البعيد، لن تكون عاجزة على حماية نفوذها لدى "الخارج القريب"، بل القريب جدا عندما يتعلق الأمر بدولة متاخمة لها و هي أكرانيا. ويزداد الأمر أهمية عندما نعلم أن سوريا البعيدة قد تساهم في تحقيق هدف آخر.

لقد مثل الوصول إلى المياه الدافئة هاجسا شغل جميع الحكام الروس، وبتعبير الاستراتيجي الفرنسي إلكسندر دي مارينش lexandredeMarenches، فإنه "منذ حكم ألبير الأكبر (1682-1725) وإلى غاية ميخائيل غورباتشوف، ظل منطق الدولة الروسية (...) متمثلا في الوصول إلى بحر دافئ ومفتوح ويعد المحيط الهندي الامتداد البحري الوحيد الذي تتوفر فيه تلك الصفتين" [19]، لذلك فسر الغزو السوفياتي لأفغانستان على أنه يبتغي تحقيق الهدف القديم للقياصرة أي الوصول إلى المحيط الهندي[20].

أما الأستاذ بيير بيارنيس PierreBiarnès، فإنه يرى أن التاريخ الروسي حركه دائما هدفان: "إرادة قوية في التقدم و النمو لتجاوز الخصم-أوروبا وفيما بعد الولايات المتحدة الأمريكية- وطموح إلى مد الحدود (...) إلى أبعد حد ممكن باتجاه البحار الدافئة: البلطيق وبحر الشمال و البحر الأسود و أبعد من ذلك باتجاه البحر الأبيض المتوسط، المحيط الهندي و المحيط الهادي[21].

لكل ذلك، فإنه إلى جانب الرغبة في فك الحصار، فإن الوصول إلى المياه الدافئة قد يفسر لنا من ناحية وعد روسيا السخي لأكرانيا أثناء "مرافقة" اتفاق الشراكة المجهض

مقارنة بالإتحاد الأوروبي، فبينما قدر وعد روسيا (ديسمبر 2013م) بتقديم 15 مليار دولار، لم يزد عرض الاتحاد الأوروبي عن 3 ملايير دولار[22].

أما من الناحية الأخرى، فإن الوصول إلى المياه الدافئة قد يكون حاضرا أيضا في السرعة التي غادرت بها القوات العسكرية باتجاه سوريا، فبمجرد موافقة الغرفة العليا للبرلمان الروسي على إمكانية استعمال القوات العسكرية خارج روسيا (30 سبتمبر 2015م)، بدأ تحليق الطائرات الروسية فوق حماه وحمص.

إن العلاقات الروسية المميزة مع سوريا تعود إلى عهد الاتحاد السوفياتي سابقا، حيث أبرمت منذ خمسينيات القرن العشرين عقود بيع أسلحة سوفياتية لسوريا، ولقد ازدادت تلك العلاقات متانة بعد الطلاق المصري السوفياتي في 1977، حيث حل ميناء طرطوس السوري محل ميناءي مرسى مطروح والإسكندرية المصريين، و هو الميناء الوحيد للسفن الروسية بالبحر الأبيض المتوسط و الذي لوحظ فيه منذ سبتمبر 2015م، وجود الغواصة النووية ديميتري دونسكي DimitriDonskoi من صنف تيفون Typhoon و هي أضخم قاذفة صنعت إلى حد الآن[23].

وتجدر الإشارة إلى أن ميناء طرطوس هو الذي يصدر عبره البترول العراقي مرورا بحمص.[24] وهو جزء من الشريط الساحلي السوري المقدر ب 150كلم والذي يقع بين تركيا ولبنان ويقابل جزيرة قبرص، [25] هذا الموقع الاستراتيجي، يضاف إليه أنه على ضفة البحر الأبيض المتوسط والذي يعد أكثر البحار القارية اتساعا[26].

الخاتمة

في ختام هذا المقال، يمكن القول بأن سوريا قد وجدت حليفا أنقذها بفضل منصبه الدائم بمجلس الأمن الأممي وتمتعه بحق الفيتو من تدخل عسكري على الطريقة الليبية. إلا أن روسيا بدورها حققت لنفسها عدة أهداف مثل:

1- العودة القوية على الساحة الدبلوماسية بعد الانكماش الذي عرفته دبلوماسيا عاقب تفكك الاتحاد السوفياتي سابقا.

2- العودة القوية عسكريا، حيث أن ما حققته منذ شهر سبتمبر بسوريا، تجاوز ما حققته الولايات المتحدة والتحالف الذي تقوده منذ أكثر من سنة ضد داعش بالعراق.

3- إعطاء إشارة لكل من تتهمهم بمحاصرتها بأنها قادرة على الدفاع عن مناطق نفوذها القريبة والبعيدة والتي قد تحقق هدف الوصول إلى المياه الدافئة.

4- دفع العديد من الدول الأوروبية -على خلفية ما ذكر في النقاط السابقة-إلى إعادة حساباتها بشأن العقوبات المفروضة عليها بسبب الأزمة الأكرانية.

الهوامش

1. قيس جواد العزاوي،**العرب و الغرب على مشارف القرن الحادي والعشرين. مؤشرات استراتيجية** ،(باريس: مركز الدراسات العربي- الأوروبي، 1997)، ص 101.

2. -Anita Tiraspolsky,**Dynamiques de l'espace post-soviétique** (Paris : Ramses98, Dunod, 1997), p.103

3. Cité par Pascal Boniface, "Une doctrime Monroe pour la Russie", **Relations internationales et stratégiques**, (printemps, 13,1994), p.150

4. شمامة خير الدين، **العلاقات الاستراتيجية بين قوى المستقبل في القرن 21**،(الجزائر، دار قرطبة، 2009)، ص477.

5. Cité par Henry Kissinger, **La nouvelle puissance américaine,** traduit par Odile Demange(Paris: Fayard, , 2003),p.80

6. أليكسي فاسلاييف، **رؤيا في الشرقين الأدنى و الأوسط من الرسولية إلى البراجماتية**، ترجمة المركز العربي للصحافة والنشر، موسكو (القاهرة:مكتبة مذبولي،(بدون معلومات إضافية)، ص 479- 480

7. Jacques Lévesque, "La Russie est de retour sur la scène internationale", Le monde diplomatique, novembre2013, pp.1-18 et 19, disponible sur http://www.monde.diplomatique.fr2013/11LEVESQUE/49761, consulté le 12/02/2016.

8. Ibid

9. Rapportée par Le soir d'Algérie, n°7719, 17 fevrier 2016, p.24

10. Jaques Lévesque, op.cit

11. Ibid

12. Cité par Le Soir d'Algérie, n°771 , 14 février 2016, p.16

13. ZbingnievBrzezinski, **Le grand échiquier. L'Amérique et le reste du monde**.,2011.

14. cité par Jean-Pierre Chevènement, "Crise ukrainienne, une épreuve de vérité", Le Monde displomatique, n°735,juin 2015, p.11

15. Jean-Pierre Chevènement, ibid

16. Pierre Biarnès ,**Le XXI^e siècle ne sera pas américain**, Editions du Rocher, Paris, 1998, pp. 200-201

17. Jean-Arnault Dérens, Laurent Geslin, **"L'obsession antirusse"**, Le Monde diplomatique, n°721, avril 2014, p.4

18. Ibid

19. Quid 2006, (sous la direction de Dominique et Michèle frémy), Robert Laffont, Paris, 2005, p.1976

20. Alexandre de Marenches, **Atlas géographique,** Stock, Paris, 1988, p.162

21. Pierre Biarnès, op.cit, p.187

22. Idem, p.179

23. Jean-Arnault Dérens, Laurent Geslin, op,cit,p.4

24. AlexeiMalachenko, "Le pari syrien de moscow", Le Monde diplomatique , novembre 2015, pp.6-7.

25. Le Petit Robert, (dictionnaire de culture générale), éditions le Robert, Paris, 1993, p.1742

26. Idem, p.1727

27. Idem, p.1181